

تشكيل الإعلام للهوية

والهوياتية، تزداد حدته لا سيما مع الأحداث الفاصلة التي تشهدها منطقتنا في الأيام الأخيرة من صراعات وتدخلات ومماحكات، تستهوي العدو والصدوق. فإذا كانت اللغة وعاء للفكر ومجناً للوحدة وأيقونة للتاريخ، فإن الإعلام لا يقل أهمية، إنه اللواء الذي يتباهى الفرد بالانتماء إليه، لمساقته لتطلعاته وميولاته ونزعاته.

وبرغم تلك الأهمية، إلا أن ما يمكن قوله عن اللغة من عدم الاهتمام والاستهجان، يقال بشدة على مجريات الإعلام. فالملاحظ عليه هو سيادة صورة تركيبيّة "رتوشية" لهويتنا العربية، تقتبس من كل ثقافة مقابلة مرصعات متأثرة، دون أن تتنظم في خرز متناسق ومنسجم مع ما يروج له وما يعاش من حيثيات. مما يُصير نموذجاً للنقل المبتور من برامج أجنبية، زيادة على ضعف الإنتاج المحلي المنبثق من الهوية العربية. بل جل الوسائط تنتهز نهم الجمهور للموضات الكونية، دون أن تحمل على عاتقها الرفع من الاستقلالية الأدبية أو الإنتاجية، فحتى عناصر الهوية الصاهرة لبلداننا تكاد تختفي من منتجاته، ولا يلقى لها بالأ، وفي مقدمتها السنن اللغوي، الذي أصبح يحتضر ويتلاشى في مقابل الدفع بالعاميات واللهجات إلى منصة التتويج على مستويات الدراما والإعلان والنشرات، وكأن المتخصص لحالنا يرمقنا في حالات استيلاّب تشبه أنوميا Anomia المجتمع، مفضية بنا إلى فقدان الذاكرة ونسيان الهوية⁴.

إن الإعلام بلا منازع، صورة الهوية ومرآة الثقافة ونبراس الجيل الصاعد والمروج لأحلامه ووجوده وآماله، فما ينشره ويبيئه للعالم من ثقافة وقيم هو رمز لمصدر السلعة وكيونتها. ومن ثم علامة على هويتها⁵، ضمن أطراف تلك القرية الصغيرة التي بشر بها ماركس في ستينيات القرن المنصرم⁶. تلك القرية أو المدينة "الكوسموبوليتانية" التي رسخت أركانها وغرست أوتادها بفعل الانفتاح الاتصالي، وتقاطر الشركات العابرة للقارات، مما جعل الهويات تتقابل فيما بينها، وتصطرع لأجل البقاء والانتشار.

إن الصورة المعروضة في الإعلام، هي العنوان الذي يختزن صانعه ومنتجه، ويختزل تاريخه الثقافي ومساره الوجودي، إنها صناعة هوياتية، كما أن الأدب هو صناعة ثقافية.

الهوامش:

- 1- كلود ليفي ستراوس، الأسطورة والمعنى، ترجمة شاكرا عبد الحميد، سلسلة المنة كتاب، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، الطبعة الأولى، 1986 بغداد، ص 76.
- 2- أجنر فوج، الانتخاب الثقافي، ترجمة شوقي جلال، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، 2005، القاهرة، ص 201.
- 3- جبارة عطية جبارة، علم الاجتماع الإعلام، عالم الكتب، 1985، الرياض، ص 107.
- 4- جون جوزيف، اللغة والهوية، ترجمة عبد النور خراقي، عالم المعرفة، عدد 342، أغسطس 2007، الكويت، ص 7.
- 5- Jean Pierre WARNIER (1999) : La mondialisation de la culture, éd. La Découverte, Paris, p. 18
- 6- وفيق صفوت مختار، وسائل الاتصال والإعلام وتشكيل وعي الأطفال والشباب، دار غريب، 2010، القاهرة، ص 139

لا شك في أن اللغة العربية في وطننا العربي، تشكل حصناً للهوية وباعثاً على التقارب ولمّ الشمل بين مختلف الأقطار، وأداة لصهر الأثنيات الثاوية على ربوعه الممتدة من المحيط إلى الخليج، التي على امتداد التاريخ استطاعت أن تسهم بفعالية في بلورة ثقافة عربية ناضجة، استقطبت لها العديد من الأدباء والعلماء، الذين أغنوا الهوية العربية، وأثروا نتاجاتها.

هذا الأمر التمازجي للغة، دفع كلود ليفي ستراوس، إلى التصريح بأن الأسطورة بمعناها الوظيفي العام، قد تولدت من اللغة وانبثقت من قواها الحاملة للمعنى والدلالة¹. وبالاعتماد على هذا الاستنتاج -برغم ما يمكن أن يقال عنه- بمقدورنا إضافة أن اللغة -في زمننا- تفرز وتنتج كذلك الأسطورة الإعلامية بمعناها الإنتاجي والتثقيفي.

فإذا كنت اللغة علامة من علامات الهوية، فإن الإعلام بدوره يشكل المظهر الحيوي لسيمياء الثقافة وتمظهراتها المتنوعة. فوسائل الإعلام الجماهيرية، تمثل قناة الاتصال الرئيسية ذات المنحى العمودي الرأسي، بينما اللغة هي أداة اتصال ذات منحى أفقي بيئي. ومن هنا، يركن الناس عن طواعية ورضا إلى الأولى، نظراً لقدرتها على تشكيل الآراء والتوجهات وبناء التطلعات والاختيارات². وبالأحرى إلى تصميم ومساءلة الوعي بالذات.

إن مهمة الإعلام لا تقتصر على أدوار النشر والإبلاغ والإخبار بحيثيات الأحداث وتوصيلها للجماهير، إنها تتخطى وظيفتها الواسطية، إلى أخرى بنائية أكثر جدارة وأعمق فائدة. ولهذا، تعد وسائل الإعلام مصدرًا أساسياً لنقل الخبرات الحياتية والتجارب الثقافية في مجتمع معين³. إنها بهذا النسق، وحدة من وحدات الهوية وسوغ الهوية العلائقية، في مقابل الآخر المتربص بنا، الذي لا يعدم وسيلة في الإفادة من تقنياتها ومخرجاتها. ولعل أبرز مثال، هو الحروب التي أصبحت تخاض على القنوات وتجنّد لها الجنود على صفحات الإنترنت وتحصي ضحاياها على مستوى التصريحات والصور المرئية قبل أن ترسل قذائفها على أرض الواقع، وإلا فما الثمرة التي تجنيها الدول واللوبيات النافذة من رصد مبالغ طائلة من ميزانياتها العامة وتخصيصها للإعلام والعلاقات العامة.

وعلاوة عليه، فقد أضحت الإعلام أداة لتسويق الأفكار ونشر الأنماط الحياتية الخاصة بكل ثقافة، وهو ما لم ينتبه له للأسف القادة وصناع القرار في بلداننا برغم التحديات والإكراهات الوجودية التي تعترض مسار تميّزنا ثقافياً وعلمياً.

الحديث عن الإعلام والنهوض بمخرجاته التثقيفية

المقدس ضد الإرهاب وبين التهلل الاستثنائي لرؤية هذه القوّة الفائقة العالميّة، وهي تدمّر نفسها بنفسها، وكأنّها ترتكب انتحاراً مشهوداً، ذلك "أنّها نظراً لقوّتها التي لا تحتمل، أجمت كلّ هذا العنف المبتوث في أرجاء العالم، وهي التي أثارت هذه المخيّلّة الإرهابية التي تسكننا جميعاً". ووفق هذه النظرة فإنّ الحدث يتعدّى بكثير مجرد الحقد على قوّة عالميّة مهيمنة، فمن المنطق أن يؤجج تفاقم قوّة القوّة وتركّزها الرغبة في تدميرها، وأن تكون شريكة في تدميرها الخاص، فالغرب الذي يتصرّف، حسب بودريار، كما لو أنّه في موقع (الله) ذي القدرة الإلهيّة الكلية والشرعية الأخلاقية المطلقة يغدو انتحارياً ويعلم الحرب على نفسه، وكان انهيار برج مركز التجارة وكأنّه تواطؤ غير متوقع بين الطرفين، المعتدي والمعتدى عليه. ويعتقد بودريار أنّ النظام العالمي المهيم يستلزم ضرورة وجود إرهاب كي يستمرّ في العمل والسيطرة لأنّه وبدون تقيضه سينهار هذا النظام، بل إنّ تواطؤاً عميقاً ينشأ بين الخصمين، ويتساءل بهذا المعنى عمّن يستخدم الآخر.

وقد حاولت وسائل الإعلام، بحسب بودريار، أن تلتصق تهمة الإرهاب بالإسلام، فالنظام العالمي، المتمثل في شبكة المصالح الرأسمالية العالمية، لا بد أن يوجد لذاته عدواً محدد المعالم يستطيع من خلاله أن يحقق مصالحه، فكان هذا العدو هو الإرهاب، وكما يصبح محدد المعالم تم لصقه بالإسلام. في حين أن هذا الارتباط غير حقيقي في جوهره، لأن الإرهاب تم توليده من داخل النظام ذاته ولم يأت من خارجه "لا يتعلق الأمر بصدام الحضارات أو الأديان، كما يتعدى بكثير محاولة اختزاله في المواجهة بين الولايات المتحدة الأمريكية والإسلام. صحيح أن هناك تقابلاً بينهما، لكنه تقابل يكشف، عبر طيف أمريكا (التي ربما كانت مركز العولمة، لكنها بالتأكيد ليست بمفردها) وعبر طيف الإسلام (الذي لا يرافد أيضاً الإرهاب)، أن العولمة تخوض صراعاً مع ذاتها". ويستطرد بودريار قائلاً: "الحرب تلازم كل نظام عالمي وكل سيطرة مهيمنة، ولو كان الإسلام يسيطر على العالم لوقف الإرهاب ضد الإسلام".

من هنا، يمكن الحديث، وفقاً لبودريار، عن حرب عالمية رابعة وليس ثالثة، ذلك أن محورها الرئيسي هو العولمة. فالحربان العالميتان الأولىان تعكسان الصورة الكلاسيكية للحرب، الأولى وضعت حدّاً لتفوق أوروبا وللعهد الاستعماري، والثانية حطمت النازية، والثالثة وقعت تحت ما يسمى بالحرب الباردة، وانتهت بالقضاء على الشيوعية. وكل حرب من هذه الحروب قادتنا إلى وضع عالمي جديد. أما الحرب الجديدة، فيعتقد جان بودريار أنها أصبحت شاملة، بحيث لم يعد بإمكان أحد الفرار منها أو تجنّبها. إنها في قلب هذا النظام العالمي الجديد.



عادي يمكن اختزاله في مجرد عمل إرهابي، وينتهي الأمر عند هذا الحد. لكننا نعرف أن الأمور ليست بهذه البساطة. وأن ما حدث يتكّن على تواطؤ دفين يجد جذوره في أمكنة متنوعة. إنه صدى لفرس كل ما هو مُطلق ولكل قوّة نهائية، وإن مبنين مركز التجارة العالمي كانا التجسيد لهذه القوّة المطلقة". والانهيار الذي تعرّض له المبنىان يفوق بأبعاده الرمزية ما تعرّض له البنيتاجون، لأنّه على حدّ تعبيره هو صورة لانهيار نسق كامل.

يتكشف من ذلك التحليل إذن أن بودريار لا يحتمل الطرف المعتدي كافة المسؤولية الأخلاقية عن الحدث، بل هو يحمل بالمثل الطرف المعتدى عليه ذات القدر ذاته من المسؤولية. فما حدث هو إحدى نتائج النظام الأحادي، وهو يقول في هذا الصدد: "عندما يأخذ نظام ما لنفسه كلّ الأوراق، فهو يدفع بالأحرى إلى تغيير قواعد اللعبة. والقواعد الجديدة متوحّشة لا ريب، لأنّ طبيعة هذا التحدي هي نفسها متوحّشة".

إنّ المشهد الذي يحيل عليه أحداث البرجين تحكّمه مفارقة تبلغ حد التداخل بين الشجب الأخلاقي والاتحاد

تغيير اللغة ذاتها وتبديل المصطلحات، وليست الأحداث فقط. فما حدث قد كتب لغة مختلفة وسجل مصطلحاً ذا قيمة دلالية خاصة تعود إلى تلك الصورة وتحيل إليها، أي أن الصورة صارت هي المرجعية الدلالية للمصطلحات. في الواقع، كما يرى بودريار، كانت أحداث الحادي عشر من سبتمبر تغيير عالمي كوني يحدث للثقافة البشرية، حيث تتولى الصورة رسم المعاني وتغيير المصطلحات. بهذا المعنى نفهم لماذا دعى بودريار إلى التفكير في أحداث 11 سبتمبر في ما وراء الخير والشر، أي في ما وراء النزعة الأخلاقية الكلاسيكية؛ والنظر إليها من جهة النظام le système الذي أثرت عليه هذه الأحداث، بحيث خلخلت قطبية رمزية معينة.

ويعيد بودريار تلك الضربة الرمزية كما يسميها هو، إلى المنظومة نفسها التي أنتجتها، وكأنّه يريد أن يكرر قول هيجل بأنه من القضية يتولد نقيضها، يقول "هم الذين نفذوا أحداث الحادي عشر من سبتمبر لكننا نحن من أردنا، وإذا لم نأخذ في الحسبان هذه الحقيقة، فإن الحدث يفقد أبعاده الرمزية كلها، ويصبح مجرد حدث